

الشكر ١ وأثره في سعادة الأُمم



المعروف للعلماء الشكر ١ بأزنه: ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة.

فالشاكرون يكون لسانه مستغلاً بالثناء على ربه معترفاً له بنعمه، ويكون قلبه مملوءاً محبة الله على هذه النعم، وشهوداً بأنها منه فضل وإحسان، وتكون جوارحه مشتغلة بطاعة الله استسلاماً له وانقياداً.

لهذا كان الشكر من مظاهر العبادة التي دعا إليها القرآن، قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيْرَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ مَا إِنَّمَا كُنْتُمْ إِنْ يَرَاهُ تَعْبُدُونَ) (آل عمران/ 172).

"كلمة الشكر من الكلمات الجوامع التي تنتظم كل خير وتشمل كل ما يصلح به قلب الإنسان ولسانه وجوارحه. فالذي لا يحب الله ولا يشهد قلبه بأن ما فيه من النعم إنما هو من الله فضلاً وإحساناً ليس بشاكراً. والذى لا يثنى على ربه ولا يحمده بلسانه ويخصوص في الباطل ويشتغل لسانه بلغو القول ولهم الحديث ليس بشاكراً، والذى يعطيه الله من العلم شيئاً ولا يعمل به ولا يعلمه الناس ليس بشاكراً، والذى يعطيه من المال ما يستعين به على طاعته بصرفة في وجوه الخير والبر ويبخل به أو يصرفه في معاصي الله ليس بشاكراً".

لهذا دعا الله إلى التخلق بالشكر في كثير من الآيات مثل قوله:

(بَلْ اللَّهُمَّ فَمَاءْبُدُّ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) (آل زمر/ 66).

ومدح الله نبيه إبراهيم لقيامه بواجب الشكر: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَائِمَةً لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمَّهُ أَجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَيْ صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّرْزِيَّا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ

كما تفضل الله بعدم عذاب الشاكرين: (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَدْتُمْ) (النساء/ 147).

ووعد الله الشاكرين بأن يزيد لهم النعم في الدنيا ويحفظها لهم: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبِّكُمْ لَثَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَ زَكُمْ وَلَثَنْ كَفَرْتُمْ إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (إبراهيم/ 7).

الشكر على نعم الله: وشكر الخالق واجب على الإنسان فإن لم يفعل كان بذلك مقتراضاً أشع أنواع الحجود والنكaran. ألا ترى إننا ننكر على الشخص الذي لا يُؤدي الشكر لمن أحسن إليه من البشر فما بالك بمن لا يُؤدي الشكر لخالقه مصدر كل النعم، ولا يمكن أن تكون مقربين إلى الله من غير شكره، وهذا ما أمر به الله في آيات متعددة قال تعالى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطْوَنِ أُمَّهَاتِكُمْ لَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئَدَةَ لَعْلَكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل/ 78).

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَا هَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَيَا فَمَنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخْيَلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُبُّونَ * لَيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرٍ وَمَا عَمَلْتُمْ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) (يس/ 33-35).

(اللَّهُمَّ إِذْ يَسْخَرُ لَكُمُ الْبَاحِرَ لِتَدْجُرِي الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلَتَدْبِتَنْغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعْلَكُمْ تَشْكُرُونَ) (الجاثية/ 12).

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّاَيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهُ يَأْتِي بِضَيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الذَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهُ يَأْتِي بِضَيَاءٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رِحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّاَيْلَ وَالذَّهَارَ لَتَسْكُنُونَ فِيهِ وَلَتَدْبِتَنْغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعْلَكُمْ تَشْكُرُونَ) (القصص/ 71-73).

ولكن الناس أمام هذه النعم وغيرها قليلاً ما يشكرون، قال سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) (يونس/ 60).

ومنفعة الشكر لا تعود على الله فإنه لا ينتفع بشكر الشاكرين، ولا يتضرر بكفر الكافرين، وإنما منفعة الشكر تعود على الشاكرين، فهو يظهر النقوس، ويقر بها من الله، ويوجه إرادتها إلى الوجهة الصالحة في إنفاق النعم في وجهها المشروعة، ولهذا يقول سبحانه:

(وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنْ زَهَمَا يَشْكُرْ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنْ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) (القمان/ 12).

أما كفران النعم فيعتبر منها للزوال لأنها تجعل المرء غير مبال بها، ويبدها بدون منفعة، ويتلف ما أنعم الله به عليه من نعم الصحة والعافية، ويسيء على غير المنهج الذي رسمه له الخالق فيؤدي به إلى غضب الله والبعد عن رحمته.

والقرآن يخبر بأن خراب الأئم كفران النعم وعدم الشكر، قال سبحانه: (وَهَرَبَ اللَّهُ مَثْلَا قَرْبَةَ كَاتَتْ آمِنَةَ مُطْمَئِنَةَ يَأْتِيَهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمَ اللَّهِ فَأَدَاقَهَا اللَّهُ لِيَسَ الْجُوعَ وَالْخَوْفَ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (النحل/ 112).

وذكر القرآن قصة قمة سباً وما حلّ بهم لکفرهم نوعاً ربهم:

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَابًا فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَهَا نَعَنْ يَمَنِينَ وَشَمَائِلِ كُلُّهُوا
مِنْ رَزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلِدَةً طَيْبَةً وَرَبِّ غَفُورٍ * فَأَعُرِضُوا
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَبْلَ الْعَرَمِ وَبَدَلْنَاهُمْ بِجَنَّتَهُمْ جَنَّتَهُمْ
ذَوَاتِي أُكُلٌ خَمْطٌ وَأَثْلٌ وَشَبْءٌ مِنْ سَدْرٍ قَلِيلٌ ذَلِكَ جَنَّبَنَاهُمْ بِمَا
كَفَرُوا وَهَلْ زُجَازِي إِلَّا الْكَافُورَ) (سبأ / 15-17).

فالشكرا من دعائكم سعادة الأئم، والتنكب عنده لا يجلب غير الدمار والخراب. حبذا لو فهمت الشعوب
الشكر وعملت به لتحصل على السعادة التي تنشدها وهي عنه غافلة. ▶

المصدر: كتاب روح الدّين الإسلامي